الفصل الأول

ولادة سلطان

في مطلع القرن الثاني عشر (الميلادي)، وفي مدينة توفين Tovin بشمال أرمينيا، على مقربةٍ من جورجيا، كانت تعيش عائلةٌ كرديةٌ معروفة، رأْسُها رجلٌ لقبُهُ نجم الدين. وكان لنجم الدِّين صديقٌ حميمٌ اسمه بهروز معروف بالذكاء والودّ والبشاشة، ولا ينافسُ صفاتِه هذه غير حبّه للنزاع. وقد كان من سوء حظّ بهروز مفاجأته في موقفٍ غير حميدٍ مع امرأة رئيس تلك المدينة. فما كان من الأمير إلاَّ أن سارع للقبض عليه، وخصيه، وسلبه إقطاعَه، وطرده من المدينة. بعد هذا الإذلال الذي نزل بالصديق، صمّم نجم الدِّين على الخروج معه، حيث رحلا إلىٰ بغداد، عاصمة الخلافة العباسية في ذلك الزَّمان، وقصدا بلاط الخليفة المقتفي لأمر الله، الذي كان يبسط سيطرته على الجزء الواقع في شرق المتوسط من العالم الإِسلامي. في بغداد لاحظ سلطان العراق آنذاك مواهب الرجلين وقدراتهما. فقد كان الخصيان آنذاك مرغوبين معلّمين في البلاط وإداريين. وهكذا فإنّ بهروز صار مربياً لأولاد السلطان، ومرافقاً للسلطان نفسه في لعب الشطرنج والكرة والصولجان. وتصاعد نفوذ بهروز بسرعة بحيث صار مسؤولاً عن بناء منشآتٍ وحصونٍ في تلك البلاد. وما نسي بهروز صديقه نجم الدِّين فيما حازهُ من سلطة، بل شاركه في كلِّ ما آلَ إليه. وكان من ضمن

الجوائز التي أعطاها السلطان لبهروز إقطاعه قلعة تكريت، على نهر دجلة؛ وقد منح إمرتَها نيابةً عنه لصديقه نجم الدِّين.

ما أن استقرّ نجم الدِّين بتكريت حتى انضمّ إليه شقيقه الأصغر شيركوه، وبعض أَكراد الشمال الذين كان القَدَر يهيئهم لجلائل الأعمال بعد أن بلغ العالم العربي يومَها منعطَفاً هاماً من منعطفات تاريخه. ففي سنة 1098، أي قبل أربعين سنة من استقرار الرجلين في تكريت، كان غُزاةٌ من أوروبا قد هبطوا على فلسطين واحتلوا القدس، وأنشأوا مملكةً قويةً سمَّوها مملكة القدس، امتدت ما بين أنطاكية شمالاً وإيلات على البحر الأحمر جنوباً. وعلى طول الساحل، وفي الجبال المطلّة عليه بنى أولئك الذين سمّوا حربهم حرباً صليبية، حصوناً وقلاعاً ضخمةً لحماية مملكتهم. وبذلك فقد قُسِّمَ العالم الإِسلامي واجتيح وضُرب، واحتُلّت أجزاءُ واسعةٌ من دياره.

في سنة 532هـ (1137 للميلاد) وُلد لنجم الدِّين ولدٌ سمّاه يوسف؛ مع ما يحملُهُ ذلك الاسم من دلالات. فهناك من جهة ارتباطه بالنبي يوسف وما خالط حياته من تقلّباتٍ سُفْلاً وعُلْواً، وما ظهر فيها (من جانب إخوته) من جشع وفساد، وما ظهر فيها أيضاً (من جانبه) من تقوى وإيمانٍ وحرصٍ على الصدق والحقيقة. وتصادفت ولادةُ يوسف أيضاً في ظروفٍ مختلطة الدلالات. ففي ليلة مولده تشاجر عمّ الصبي شيركوه مع الإسفهسلار، أي الضابط القائم على حراسة بوابة القلعة؛ إذ أتته امرأةٌ باكيةٌ مستغيثةٌ به من إساءةٍ نزلت بها من الضابط، فما كان من شيركوه بعد جدالٍ معه، إِلاَّ أن استلب منه رُمحه وقتله به. وعندما علم الخصي بهروز (صاحب الإقطاع) ببغداد بالأمر اشتدَّ غضبه وأمر بطرد شيركوه وأخيه نجم الدِّين من تكريت. فكان هذا الحادث المزعج للأُسرة في ليلة المولد إشارةَ نحسٍ رُبطت وقتَها بالوليد يوسف! لكنْ قيل فيما بعد: «قد يأتي الله بالفَرَج في الوقت الذي لا ينتظره أحد. وهكذا كان الأمر مع (النبي) يوسف أيضاً».

من تكريت مضى الأَخوان إلىٰ الموصل التي كان يسودها آنذاك في مواجهة الاحتلال الأوروبي لفلسطين قائدٌ عربيٌّ قويٌّ اسمه عماد الدِّين زنكي، بذل جهوداً جبَّارةً لإعادة توحيد ديار الإِسلام انطلاقاً من تلك الناحية. فقد كانت الشام تقليدياً في خصومةٍ مع العراق، وأنطاكية تقاتل حلباً، وطرابلس حمصاً، والقدس تخاصم دمشق، كما كان السنيون الحاكمون (بالعراق وبعض الشام) يخاصمون الشيعة الفرعَ الآخر للإِسلام (المسيطرين في مصر وبعض الشام) . وفي سياق كفاحه من أجل جمع كلمة المسلمين، ضمَّ زنكي الأخوين (نجم الدِّين وشيركوه) إلىٰ عسكره. فتولى نجم الدِّين إمرة قلعة بعلبك في سهل البقاع، بينما صار شيركوه ضابطاً كبيراً في الجيوش التي يقودها الوزير.

في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1144م احتلت قوات زنكي مدينة الرُّها في شمال بلاد ما بين النهرين فكانت الناحية الأولى التي استعادها المسلمون من الصليبيين. وقد تسبَّب ذلك بصدمةٍ لأوروبا؛ فهبَّ الراهب برنارد أُوف كليرڤو يدعو لحملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، وكان ملك فرنسا لويس السادس بين أوائل المستجيبين مع امرأته الملكة إليانور من أكيتان. وفي سنة 1146م، وقبل وصول الحملة الجديدة إلىٰ الأراضي المقدَّسة، مات زنكي، وخَلَفَهُ في إمارته قائدٌ آخر أكثر قوةً منه هو نور الدِّين (ابنه). وبعد سنتين من تلك الأحداث أمكن دحر الصليبيين من أمام أسوار دمشق؛ وبذلك تحولت الحملة الصليبيةُ الثانيةُ إلى كارثة. وشجّع ذلك المسلمين في جهودهم الحثيثة من أجل استعادة فلسطين.

نشأ الصبي يوسف في بعلبك ودمشق. وعلى الرغم من أنَّه كان هشّ البنية، فقد عُرف في قصور دمشق بالذكاء والرجولة والكرم والتقوى والتواضع. وقد شارك أنداده الفتيان في البداية في المعاقرة وصحبة النساء، لكنّ حراجة الموقف التاريخي آنذاك سُرعان ما صرفته عن وجوه الإغراء تلك. وقد شاع لاحقاً أنّ يوسفاً (الذي لُقّب فيما بعد بصلاح الدِّين) إنما تربَّى على التقوى والورع على يد نور الدِّين، الذي سلك به طريق الصلاح، ووجَّهه لمقاتلة

المحتلين الكفّار. ففي بلاط دمشق كانت مبادىء الدِّين الحنيف هي السائدة، وقد آمن الفتى الناشىء إيماناً عميقاً بالآية القرآنية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 69].

في سنة 1163م كان قد صار واضحاً لنور الدِّين أنّ الخطوة التالية ينبغي أن تكون توحيدَ العالم العربي لمواجهة الاحتلال الأوروبي. وقد بدأ نور الدِّين ذلك بمصر التي كان يحكمُها الفاطميون من الفرع الشيعي للإسلام. كانت الخلافة الفاطمية في حالة ضعفٍ وفوضى، وقد أعطى ذلك حجةً ملائمة لحاكم الشام للبدء بها. إذ أرسل نور الدِّين القائد شيركوه، عمّ صلاح الدِّين المشهور بفروسيته للقيام بغاراتٍ باتجاه الجنوب، وطلب من الشاب صلاح الدِّين، الذي كان قد بلغ السادسة والعشرين، أن يرافقه؛ فمضى صلاح الدِّين متردداً مع عمّه. بيد أنّ نور الدِّين لم يكتف بتوجُّه شيركوه وصلاح الدِّين على رأس جيشٍ إلىٰ الجنوب؛ بل سار هو بنفسه وحاصر أكبر قلاع الصليبيين في وسط سورية: قلعة الكرك. بيد أنّ القلعة ظلّت عصيّةً ومنيعة، مما اضطرّه إلىٰ رفع الحصار والانسحاب. هكذا تبيَّن أنّ الظروف ما كانت قد نضجت بعد للقيام بهجومٍ مباشرٍ على المملكة الصليبية.

في سنة 1164م وبجيشٍ قاد صلاح الدِّين مقدمتَه دخل شيركوه القاهرة. لكنه اضطر للانسحاب بعد أسابيع عندما سارع الصليبيون لمساعدة الخلافة المصرية. وَفَشِلَ غزوٌ آخرُ أيضاً بعد سنواتٍ ثلاث؛ لمسارعة الصليبيين إلى نجدة الفاطميين؛ إذ لم يكن بوسعهم تقبُّلُ توحُّد سورية ومصر في مواجهتهم. وقد بلغ من حرص المملكة الصليبية على عدم تمكين نور الدِّين من الاستيلاء على مصر، أنّ كلَّ بارونٍ صليبي كان يتردَّدُ في مساعدة المصريين؛ كان مهدَّداً بفقد عشرةٍ بالمائة من دَخْله السنوي. لذلك فقد فشلت محاولتان أُخريان من جانب نور الدِّين أيضاً. لكنْ في المحاولة الخامسة بتاريخ الثامن من كانون الأول/ يناير سنة 1169 نجح شيركوه في دخول القاهرة منتصراً. واعتزازاً بهذا

الإنجاز أعلن نفسهُ ملكاً على مصر، ثم ما لبث أن توفي فجأةً بعد شهرين! وقيل وقتها إنه ربما مات مسموماً. ولكي لا تحدُث نكسةٌ سارع نور الدِّين بعد مراجعةٍ للأمور من دمشق لتعيين صلاح الدِّين خَلَفاً لعمّه في مصر. وما كان تعيينُ الجندي الشابّ بسبب قوته وكفايته؛ بل لاعتباراتٍ تُرجّحُ ضعفَهُ لِصِغرِ سنّه وقلّة تجربته. فما كان نور الدِّين، في الواقع، يريدُ منافساً قوياً بالقاهرة. وكان واثقاً من إمكان ضبط الشاب الخَجول والمؤدَّب. وقد أخطأ نور الدِّين التقدير في ذلك كلّه كما سيتبيَّنُ فيما بعد.

في البداية سلك صلاح الدِّين سلوكَ التابع الخاضع. إذ أقبل على تنفيذ توجيهات نور الدِّين بحزم وبدون رحمةٍ فيما يتصل بإزالة المذهب الشيعي من مصر وإحلال المذهب السنّي محلّه. ثم طلب من سيّده (نور الدِّين) أن يسمح له باستقدام والده نجم الدِّين إلىٰ مصر «ليكتمل السرور به ويتمَّ الحبور»[1]، «ولتجري القصةُ مشاكِلةً لما جرى للنبي يوسف». ووافق نور الدِّين على ذلك. وصل نجم الدِّين يوسف إلى القاهرة في ربيع سنة 1170 فاستقبله ابنُهُ (صلاح الدِّين) بكلّ مظاهر الإعزاز والتكريم؛ بل وعرض عليه أن يتنازلَ له عن السلطة بمصر؛ لكنّ الوالد أجاب: «يا ولدي! ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنتَ كفءٌ له، ولا ينبغي أن يُغيَّرَ موقعُ السعادة»! ومات نجم الدِّين بسقطةٍ عن فَرَسه عند باب النصر (أحد أبواب القاهرة) بعد سنتين من وصوله إلىٰ مصر.

بين سنتي 1169 و1174م تابع الصليبيون هجماتِهم لزعزعة السيطرة الدمشقية على مصر، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. لكن في الفترة نفسِها توتّرت

---

(1) العبارات الواردة ضمن الحاصرتين وردت كذلك في الأصل الإنكليزي، وقد أثبتّها بنصها العربي عن؛ بهاء الدين ابن شدّاد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** أو **سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيّال، مصر 1964، ص 44. وقد استعمل المؤلف السيرة الصلاحية لابن شدّاد (الذي يذكره دائماً بلقبه: بهاء الدين) كثيراً في تضاعيف الكتاب، وسأرجع دائماً للنص الأصلي (المترجم).

العلاقةُ بين نور الدِّين وصلاح الدِّين؛ لأنّ الأخير توقّفَ في تنفيذ بعض مطالب نور الدِّين. وأخيراً، وفي سنة 1174م بدأ نور الدِّين ـ بعد أنْ نفذَ صبرُه ـ يُعِدُّ العُدَّةَ لاجتياح مصر بجيشٍ عرمرم. لكنّ شيئاً من ذلك لم يحْدُثْ، لأنه توفّي في 15 أيار/ مايو من السنة نفسها؛ تاركاً السلطة ـ لسوء الطالع ـ لولده الصالح إسماعيل البالغ من العُمُر أحد عشر عاماً! وبعد سنة على وفاة نور الدِّين خرج صلاح الدِّين من القاهرة إلىٰ سورية على رأس جيشه فاستولى على الشام، وأعلن نفسه سلطاناً على سورية ومصر. وبذلك فقد أحاطت إمبراطوريته المتوسِّعة بمملكة الصليبيين إحاطة **السِوار بالمِعْصَم**[1].

نجحت الحملة الصليبيةُ الأولى بسبب الصراعات التي كانت مشتعلةً بين الأمراء المسلمين الصغار، وبسبب الانقسام بين الفِرَق الإسلامية السُنّية والشيعيَّة، وتنافُس الخلفاء في مصر وسورية وتركيا[2]. أما الآن، وبعد تحقيق الوحدة تدريجياً بين تلك الأجزاء المتصارعة؛ فإنّ العالَم العربي استطاع أن يجمع قواهُ في مواجهة الصليبيين. كانت استعادةُ العرب للرُّها أولى الخطوات المهمة. وعندما فشلت الحملة الصليبية الثانية؛ أعاد ذلك للعالم الإسلامي الثقةَ بقدرته على دفع الصليبيين نحو البحر من جديد. وقد تحقَّقت هذه النهضةُ بفضل ثلاثة أمراء أقوياء تمكّنوا من توحيد العرب: (عماد الدِّين) زنكي الشجاع والكفء الذي استعاد الرُّها وحكم حتى سنة 1147م. ونور الدِّين (زنكي) القويّ الذي وحَّد الشام والعراق تحت السلطة السنيَّة، وأخضع مصر سنة 1169م. والآن صلاح الدِّين. فبوصول صلاح الدِّين سنة 1175م، وفي الثامنة والثلاثين من عمره إلىٰ تملُّك دمشق والقاهرة، اختفى الانقسام الذي استمرَّ

(1) في الأصل: إحاطة براثن الكركند (أو السرطان البحري) بالفريسة! (المترجم).

(2) كذا في الأصل، وما كانت في تركيا (آسيا الوسطى) خلافةٌ وقتها، ولا كان فيها نفوذ للفاطميين والعباسيين؛ بل كانت منقسمةً بين الأمراء السلاجقة، والبيزنطيين والصليبيين (المترجم).

قروناً. لقد اختفت الخلافة الفاطمية من مصر، وخَلَفَ السنيُّون الشيعةَ على ضفاف النيل. وفي ربيع سنة 1175م أعلن صلاح الدِّين نفسه سلطاناً على سورية ومصر، وجرى الاعتراف به من جانب الزعيم الرسمي للمسلمين في المشرق(1)، خليفة بغداد. قال صلاح الدِّين: «لمّا يسّر الله لي الديارَ المصرية علمتُ أنَّه أراد فَتْحَ الساحل (فلسطين) لأنه أوقع ذلك في نفسي»(2). هكذا صار حُلُمُ الجبهة الواحدة في مواجهة الصليبيين واقعاً. وحُلُمُ العرب هذا صار كابوساً للصليبيين. فطوَالَ تسعين سنة استطاعت المملكةُ اللاتينيةُ الصمودَ في وجه الأعداء، والتوسُّع على حسابهم، بالتحالفات الذكية، والغارات المزلزِلة، والقلاع الاستراتيجية. أما اليوم، وبعد توحُّد المسلمين؛ فإنّ بقاءَ المملكة اللاتينية لا بدَّ أن يعتمد على وحدتها الداخلية، وقدراتها العسكرية.

لقد كان على السلطان قبل أن يبدأ هجومه الأخير، إنجازَ مهمةٍ عسيرةٍ ضمن سلطنته نفسها. لقد كان عليه إخضاعَ آخِرِ الإقطاعيات المستقلَّة. ففي شهر صَفَر حزيران/ يونيو سنة 1183م، وبعد وفاة الأمير الطفل (الصالح إسماعيل) سيطر السلطان على حلب. وكانت لتلك الخطوة، إضافةً لأهمية المدينة العسكرية، أبعادٌ رمزيةٌ مؤثِّرة. كانت حلب تُسمَّى القلعة الشهباء. وقد انتشرت بين الجمهور مقولةٌ مؤدَّاها أنّ السيطرة على حلب ستكون مقدّمةً لفتوحاتٍ أعظم(3):

---

(1) يُسمّي المؤلف المنطقة «الشرق الأوسط»!.

(2) ابن شدّاد: النوادر السلطانية، مصدر سابق، ص 41.

(3) بيت من قصيدة استشهد بها (محيي الدين) ابن الزكي في تهنئة السلطان بفتح حلب، مطلعها:

بدولة التركِ عَزّتْ دولة العربِ ... وبابن أيوبَ ذلّتْ شيعة الصُلُبِ

قارن بابن واصل: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، ت. جمال الدين الشيّال، القاهرة 1957، 2/ 145. والبيتُ مطلع قصيدةٍ طويلةٍ لابن سناء المُلْك في ديوانه (ط. حيدر آباد) 9/ 16. وقارن بالوافي بالوفيات للصفدي، م21، ص ص 146/ 149.

وفتحُكُمْ حلباً بالسيف في صفرٍ مبشِّراً بفتوحِ القدسِ في رجبِ

في سنة 1186م استولى السلطان على الموصل بأعالي بلاد ما بين النهرين. فصار بذلك مهيئاً للضربة الكبرى. وكان شهر رجب هو الوعد.